الفصل الخامس

تي. إي. لورنس ولويس ماسينيون

تُظهر صورة التقطت للحلفاء عشية دخولهم إلى القدس في ١٩١٧/١٢/١١م صورة لتوماس إدوارد لورنس، يقف وسط ضبّاط بريطانيين آخرين طوال القامة مرفوعي الرأس وتبدو عليه مخايل الكبرياء ونشوة الانتصار. أما لورنس الضئيل البنية، فقد كان مسبل العينين وإلى جواره صورة ضابط فرنسي منتصب القامة ونحيل الجسم، وعيناه تحدقان إلى الأمام وكأنّه يرى، من وراء الأبنية التي تتجه من بوابة يافا باتجاه كنيسة القيامة وقبة الصخرة، صورة لقدس أخرى.

كانت تلك الصورة للويس ماسينيون، الضابط الفرنسي الرفيع في الأراضي المحتلة في كل من فلسطين وسوريا. وقد كان عمره آنذاك أربعة وثلاثين عاماً، أمّا لورنس فكان عمره تسعةً وعشرين عاماً. يشير لقاؤهما في القدس إلى نهاية مرحلة قصيرة تلاقى فيها مسار حياة شخصين استثنائيين بعضهما مع بعض. كان لورنس في منتصف المغامرة التي تركت علامة مبهمة على تاريخ عصره؛ أمّا ماسينيون فكان معروفاً مسبقاً بالنسبة للعالَم المتعلّم على أنّه من علماء اللغة العربية المتمتع بمواهب استثنائية، وأنّه انضمّ إلى مفوضية بيكو بعد خدمة في مضيق الداردانيل Dardanelles وفي مقدونيا. وقد التقيا لأول مرة في أغسطس (آب) عام ١٩١٧ في المكتب العربي في القاهرة؛ إذ كانت هناك خطة لإلحاق ماسينيون "بالفيلق العربي"، وهو قوة مؤلفة من

العرب الذين احتشدوا من أجل ثورة الشريف حسين، الذي كان يقوم على تدريبه قرب الإسماعيلية مدرّبون بريطانيون وفرنسيون.[١]

لا توجد إشارة في كتب لورنس المنشورة إلى هذا اللقاء؛ إذ لم تتوسع اهتماماته الكبيرة كثيراً لتصل إلى تاريخ العرب أو ثقافتهم، وربما لم يكن اسم ماسينيون يعني إلا القليل له في ذلك الحين أو حتى فيما بعد. وعلى كل حال، بدأ اسم لورنس يصبح معروفاً جداً للفرنسيين في الشرق الأدنى. وفي نفس المرحلة تقريباً، كان الملحق العسكري الفرنسي في القاهرة، دو سان كونتان de Saint- Quentin، وهو دبلوماسي ورجل ذو حكمة وتبصّر، قد سمّاه " الشخصية الأكثر جاذبية في الجيش أو الإدارة البريطانية في الشرق"، وهو رجل كانت عيونه بالذات تشع بالضوء من حدّة فكره، وهو الذي أعطى انطباعاً عميقاً من القدرة والذكاء.[٢] وكان ماسينيون قد وصفه في مقالة كتبها في نهاية حياته بعبارات مشابهة:

> دُهشت لرؤية رجل إنكليزي كان لا يزال شاباً، ومتحرّراً جداً من كل التقاليد، وكأنه خارج عن القانون، ولكنه حكيم جداً، وكان حلواً ومرّاً بنفس الوقت، ويتّسم بالخجل كفتاة في خدرها، ويتّسم أيضاً بنبرات خشنة وبصوت منخفض، مثل تلك التي يصدرها السجين.[٣]

زعم ماسينيون في مقالته أنها كانت نيّة المكتب الرئيس العام أن يُلحقه مع لورنس بالجيش العربي الشمالي تحت إمرة فيصل، والذي كان سوف يعمل في الجناح الشرقي لجيش آلينبي Allenby، ولكنّ لورنس كان قد هدّد بالاستقالة إذا ما تمّ تعيين فرنسيّاً والذي قد يتحدى سلطته الخاصة على فيصل؛ ولذلك فقد اختير جندي آخر محترف يدعى بيساني Pisani بدلاً عنه. وربما يؤكد البحث في الأرشيف البريطاني أو الفرنسي هذه الرواية، ولكن حتى ذلك الحين يجب أن نتعامل مع الأمر بحذر، إذ إنّ إحدى السّمات التي اشترك فيها الرجلان كانت عبارة عن تخيّل قوي من شأنه أن يفرض نظامه الخاص على الأحداث التي نتذكرها من حياتهم. كانت تلازم ماسينيون

بلاشك ـ في حياة طويلة من التأمّل المستمر، وفي شعور بأبواب تُفتح ولكنها لا تُغلق أبداً ـ فكرة ماذا قد يكون مصيره؛ ولكن تلازمه أيضاً فكرة أنّ هذا المصير هو مصير زائف. يخبرنا صبيحة الدخول إلى القدس أنّه فتح قلبه وعبّر عن "اشمئزازه لأنّه تمّ إيفاده إلى العرب وهم في حالة ثورة، والذين كنا في حلف معهم، وذلك لكي نستخدمهم ومن ثمّ نتخلّى عنه".[٤] ومرة أخرى، ربما تكون هذه الذكرى صحيحة أو لا تكون كذلك، ولكن كان لدى لورنس قبل النهاية إحساس أنّه قد وُضع في "مكان ليس له مخرج صادق".[٥] أثار هذا الإحساس صدى لدى ماسينيون الذي لام نفسه وأبناء وطنه على "غيظنا الدنيوي في الفهم، والتغلّب، والتملك"، وذلك في الإساءة إلى حسن الضيافة المقدّس.[٦] قام كلا الرجلين، وبحسب طريقة جيلهم، بالحكم على ما فعلته بلدانهم تجاه مستوى رفيع من الشرف الوطني، وكان واحداً من أهداف البعثة الإمبراطورية.

يمكننا أن نلمس نوعاً ما من الإعجاب والانجذاب فيما سطره ماسينيون عن لورنس، وكأنما حياة كل منهما وقد أثرت في حياة الآخر، كانا كرحالتين يعيشان في عالم لم يكن قد خلق لهما. فقد كان كلاهما أديبيْن يعرفان قدرهما، وقادرين على التعبير بالكلمات عن جمال الأشكال الخارجية. ويمتلئ كتاب "أعمدة الحكمة السبعة" بصور حية وعنيفة تسجّل تأثير منظر طبيعي أو بلدة أو شخص، من تلك اللحظة عندما تلوح حرارة شبه الجزيرة العربية مثل سيف مسلول".[٧] استطاع ماسينيون، وهو ابن فنّان، من إحياء ووصف الجمال الرائع للأشكال المرئية التي يقول فيها "أحببتها كثيراً".[٨] على كل حال، كان هذا العالم لكل منهما عالماً محرّماً نوعاً ما، إذ كان لديهما شعور المنفى، والوحدة في بلد مهجور، وشعور البحث عن شيء ما لايمكن أن تُقدّمه الأشكال المرئية. كتب لورنس عن "عزلته الغريبة التي تركته بدون خليل، باستثناء علاقة كاملة وخشنة وغير مريحة".[٩] كُتب الكثير عن أصول هذا الشعور على أنه اختلاف داخل حياته، وربما فُسّر ذلك كثيراً نسبةً إلى الجنس، وقليلاً جداً بالنسبة للطبقة الاجتماعية. إذ إنّ الطبقة الاجتماعية في إنكلترا في عصره، كانت سبباً مهماً في المعاناة كما هو الحال

بالنسبة للجنس؛ ومن خلال ظروف ولادته، فربما كان ذلك الشعور في فقدان مكانه في العالم قد أضيف إلى معاناة جسده. يتحدث ماسينيون عن لورنس في مقالة أخرى على أنّه يعاني من "مرض سرطان، في جسمه لا يمكن شفاؤه"،[١٠] ولا يحتاج الأمر إلى كثير من التبصّر، ولكن إذا أعطينا قليلاً من الاهتمام لكلمات ماسينيون، فسوف نعرف أنه هو أيضاً كان له نصيب من المعاناة الخاصة به، إذ تحدث في رسائل، بالإضافة إلى كتابات منشورة، عن "هلع داخلي" كان قد استحوذ عليه.[١١]

إنَّ الاستفسار عن شكل "سرطان الجسم" الذي أصاب كلاً منهما أمر أقل أهمية من فهم المعنى الذي أطلقاه عليه. كانت الحياة والسفر في عالم الإسلام لكل منهما هي التجربة التي جعلتهم واعيين لنفسهما ومن خلال ذلك قرّرا مصيريهما. وعلى كل حال، فقد كان عالماً مختلفاً لكل واحد منهما. بالنسبة للورنس، فإنَّ شبه الجزيرة العربية تعني الصحراء إذ يقول: "المنطقة العربية الشرقية لي هي مكان فارغ"،[١٢] و"غالباً ما أستيقظ الآن في شبه الجزيرة العربية: حيث بقي المكان معي أكثر من الناس والأفعال".[١٣] تعكس وجهة نظره عن شبه الجزيرة العربية وجهة نظر سي. إم. دوتي C.M.Doughty، وهو الجيولوجي الذي كان يجوب الصحراء لكي يجد الوجه المجرد للعالم كما كان عندما نشأ، مثل الناسك الذي "هرب بإرادته... لكي يستعيد آدم الأول في روحه الخاصة به".[١٤]

كانت الصحراء تُعدُّ الشكل الخارجي للعالم البدائي للورنس ودوتي. وأما عند ماسينيون فكانت تعني شيئاً ليس بذاته بل إنّما رمز لأرض بور لم تُعتق فيها حياة إنسانية، والتي من الممكن أن يبزغ فيها نورٌ من مكان آخر، إذ يقول: " أحنُّ في الغالب إلى الصحراء، هذا البحر الهادئ المثالي، والمتوازن بضخامته بالذات عن طريق العبور اليومي للشمس... إنّه هناك حيث ولدت حقاً، وحيث دعاني باسمي 'صوت أحدهم وهو يصيح في البراري'."[١٥] وعلى كل حال، فإنّ شرقه العربي هو ليس الصحراء فقط. يقتبس ماسينيون قول لورنس له "أنت تحب العرب أكثر مني"؛[١٦] فالمشرق لماسينيون مليء بإنسان الماضي والحاضر. وتقع القاهرة في وسطه تماماً، وهي النتاج

الأكبر للحضارة العربية الإسلامية. لم يكن لورنس يحب المصريين، إذ كتب إلى روبرت كريفز Robert Graves الذي كان ذاهباً ليدرِّس هناك : المناخ جيد، والبلد جميل، والأشياء محببة، والناس فضوليون ومثيرون للاشمئزاز".[١٧] كانت تلك المدينة لماسينيون تعني الصداقة والحب الشديدين، وعزَّز ذلك زياراته العديدة طوال حياته، وزيارات الأجيال من طلابه فيما بعد. وكانت أيضاً تعبيراً واضحاً لما سوف يكون موضوع اهتمامه البالغ، ألا وهو نشر ثقافة ووعي أخلاقي عبر الأجيال مأخوذ من تعاليم الرسول محمد. لم تكن القاهرة مدينة للأحياء فقط، إذ تقع خارج جدرانها التي تقود للعصور الوسطى "مدينة الأموات"، حيث دُفن المعلّمون والأولياء بالإضافة إلى الحكام؛ ففي مقالة مشهورة، قام بإحياء ذكرى قبورهم، و"سلسلة الشهود" التي كانت له بمثابة التاريخ الحقيقي للإسلام.[١٨]

يُعدُّ المشرق العربي أيضاً لكل من ماسينيون ولورنس أنّه المكان الذي جرّبا فيه شيئاً ما عميقاً ووجدا فيه تحدياً كونه كشف عن نفسيتيهما الحقيقيتين ووجه حياتيهما. بالنسبة للورنس، كانت التجربة الكاملة "للثورة العربية"، إذ إنَّ حيوية المغامرة، والتي مرّت كما كانت بشعور من كونه في مكان مزيف، زادت من وحدته. كانت اللحظة الرمزية في ذلك اليوم من نوفمبر(تشرين الثاني) من عام ١٩١٧ في درعا، وبحسب روايته، عندما تعرّض للسجن والضرب وسوء المعاملة من قبل الأتراك، و"قد فقدت معقلَ حقيقتي بشكل نهائي".[١٩] جاءت الأزمة في حياة ماسينيون في وقت مبكر، ففي مايو (أيار) من عام ١٩٠٨، وبحسب روايته، اتُّهم بأنّه جاسوس بينما كان في رحلة في العراق لها علاقة بالآثار، وتمّ احتجازه وتهديده بالإعدام. حاول أن ينتحر "بسبب هلع داخلي مقدّس"، وفقد وعيه، ومن ثمّ استيقظ فجأة ليدرك وجود شخص غريب "الذي أخذني كما كنت، في يوم غضبه، هامداً في يديه مثل سحلية الرمال.[٢٠]... صحوة مفاجئة، أغمضت عيني أمام نار داخلية، وهي تحاكمني وتحرق قلبي، كان هناك بلاشك كائن صاف، لا يوصف، خلاّق، أوقف إدانتي بسبب صلوات لكائنات غير مرئية، كانوا زوّاراً لسجني، وتطرق أسماؤهم فكري".[٢١] اشتملت تلك

"الكائنات غير المرئية" على أشخاص معروفين من قبله، وآخرين من الماضي، والتي بواسطة شفاعتها أصبح الآن واعياً.[٢٢]

مرة أخرى، فإنه من الضروري أن نكون يقظين. كان بعض الكتّاب يشكّون بحدوث الحادثة في درعا كما يصفها لورنس. قال آر. مينيرتسهاكن R.Menertzhagen، وهو كاتب غير موثوق به كثيراً، إنّ القصة غير حقيقية؛[٢٣] أمّا الكاتب برنارد شو Bernard Shaw وزوجته، وكلاهما ذو ثقة أكبر وأكثر ترفقاً، فقد ذكرا نفس الشيء، كما دعته السيدة شو على أنه "كاذب لعين".[٢٤] ربما تكون هذه هي الحلقة التي يشير إليها لورنس عندما يقول، في نقطة ما من كتاب "الأعمدة السبعة" "لقد خشيت الحقيقة البعيدة، وكتبت عنها بشكل مبهم".[٢٥] وبشكل مشابه، يوجد هناك شيء غير مقنع قليلاً فيما يتعلق بمواطن فرنسي يتم تهديده بالإعدام في مرحلة من التاريخ العثماني. إذ لا تذكر تقارير القنصل الفرنسي في بغداد وقبطان وطبيب السفينة التي كان ماسينون يسافر على متنها أي تهديد أو حكم، ولكنها تظهر أنّه قد تعرّض إلى حالة من الحمّى الشديدة بسبب مرض الملاريا أو ضربة شمس، والتي من الممكن أن تكون قد أثّرت على وجهة نظره لما كان يحدث من حوله.[٢٦] لا يهمُّ الأمر كثيراً، فمهما كان الشكل خيالياً، فإنَّ كلا الرجلين كانا يحاولان أن يصفا بعض المواجهات الحاسمة مع نفسيهما. إذا لم تكن الحادثة في درعا فربما كانت في مكان آخر، حيث عرف لورنس أنّه فقد معقل حقيقته؛ سواء في السجن أوفي قبضة الحمّى، وعانى ماسينيون من هلع داخلي وتدخل العناية الإلهية.

كان ذلك بالنسبة للرجلين بمثابة دعوة لإيجاد نوع ما من النظام في فوضى الحياة منذ ذلك الحين وفيما بعد. لم يكن هناك ذلك الغريب بالنسبة للورنس، ولا تدخُّل لحياة أخرى في حياته. ويبدو أن الصرامة الدينية في صباه لم تترك لديه شعوراً بالنظام الأبدي وهو يتدخل بالنظام الدنيوي، ولكن فقط شعوراً بالنفور من رجال الدين : "أتمنى من أولئك القرود الموشحين بالسواد أن يستطيعوا أن يروا النور الذي يَلمعون به ."[٢٧] ومع ذلك فقد كان يتمنى بحماسة " تلك الرؤية للحياة ككل" ؛ والتي

"لم تكن من زوّاره، ولكنها دائماً هناك".[٢٨] ومهما احتوت حياته من نظام فيجب أن يكون مفروضاً عليه من داخله، ولكن كانت تلك مشكلته. إذ إنّ تفسيراته لنفسه هي دائماً الأفضل. كان مدركاً لوجود مركب خطر بين إرادةٍ ذات قدرة استثنائية وبين فقدان لهدف موجّه مستقر: "وجدت نفسي خطراً على الناس العاديين، وذلك بوجود قدرة كهذه تتحرك بدون موجّه تحت تصرفهم"؛[٢٩] "لا أملك الدافع والقناعة لأستخدم ما أعرفه لكي تكون قدرتي على تشكيل الناس والأشياء."[٣٠]

إنَّ الكشف عن هذا اللاانسجام المأساوي بين الإرادة والهدف، هو ما كانت تعنيه مغامرته في الشرق له في النهاية. لقد آمن بالحركة العربية، " ليس أخيراً... ولكن في وقتها ومكانها"،[٣١] ولذلك فقد كان باستطاعته أن "يكتب إرادته على السماء مستخدماً النجوم"؛[٣٢] ولكنه لم يعد يؤمن بها قبل أن تنتهي، أو بدور بريطانيا فيها، أو بدوره هو بالذات، وبشعور ما أعمق كان ذلك فقداناً لمعقل حقيقته.

لم يفقد كل شيء على كل حال؛ فالدافع الأدبي كان بداخله أعمق من أي شيء آخر، وكذلك الرغبة بتحويل كل التجارب إلى كلمات، وحتى بتصوير تلك التجارب في ضوء نماذج أدبية. عندما ذهب إلى الشرق الأدنى في المرة الأولى، كان تفكيره قد تشكّل مسبقاً من خلال الكتب التي قرأها خلال السنوات المدرسية، والتي قضاها في أوكسفورد: مثل قراءاته لشعر هوميروس Homer، والأساطير الايسلندية، والقصص الرومانسية الفرنسية في العصور الوسطى، ووليام موريس William Morris. وكان يهدف إلى إعداد نفسه من أجل رحلة عربية قد تأتي منها صحراء عربية أخرى. وقدّمت له الحرب بعد ذلك موضوعاً للمحمة؛ ولكن بعد أن انتهت، لم يعد يؤمن بما فعله، ولكنه كان لا يزال يصنع الأدب منه. كان ذلك نجمه المُرشد في العقد التالي، إلى أن انتهى من كتاب "الأعمدة السبعة". ومن ثمّ طرح السؤال نفسه مرى أخرى: هل كان يؤمن بما فعله في النهاية ؟ كان حكمه على كتابه قاسياً، ولكن ربما كان عادلاً؛ إذ كان " يتألف من اقتباسات وإحالات من كتب أخرى، مليئة بهذه الأصداء لكي تُغني أو تكرّر أو تصرف دوافعي عن وجهتها"؛[٣٣] "أصداء أوكسفورد والاحترام الأكاديمي لكتاباتي".[٣٤]

"النصر" هو العنوان الفرعي لكتاب "الأعمدة السبعة"، وسواءً كان المقصود هنا هو الإشارة إلى المآثر أو إلى الكتاب نفسه، فإنّ لورنس يستخدمه بسخرية متعمدّة. وبحسب رأيه كان كلاهما عبارة عن أعمال فاشلة، وذلك لأنهما كانا محاولات لحل مشكلة لا يمكن حلّها، وهذا بحسب التعابير التي طرح بها المشكلة: كيف يمكنه، عن طريق جهد من الإرادة، أن ينجو من ظلم الإرادة؟ قد يبدو الأمر مهماً، وذلك في الفصل المشهور عن تحليل الذات في "الأعمدة السبعة"، إنّه دائماً يكتب كلمة "إرادة" مبتدئاً بحرف كبير"W " ، وكأنها كائن منفصل.[٣٥] (يبدو أنّه يشير إلى هذا الفصل عندما يتكلم عن الكتابة عن شيء بشكل غير مباشر، بل إنّما بشكل غامض، إذ يمكننا أن نلمح إيحاءات لرغبة جنسية ملحّة وخائفة فيما يكتبه عن "الإرادة".

حاول في مرحلته الأخيرة أن يُخضع نفسه إلى نظام ليس من صنعه ولكنّه قَبِله بإرادته، وأن يتحرر روحانياً من خلال "حياة قويمة ومستسلمة" وذلك حسب كلام ناقد حاد الملاحظة.[٣٦] كان توماس هاردي Thomas Hardy في تلك السنوات الأخيرة قدوته في السلوك الإنساني، إذ كان راضياً ومستقلاً عن العالم، ومستنزفاً كل العواطف :" شاحباً جداً، وهادئاً جداً، ومصقولاً داخل جوهر ما... يوجد لدى هاردي وقار: إنّه ينتظر الموت بهدوء شديد، بدون رغبة أو طموح متبق في روحه".[٣٧] (لا يهم إذا كان ذلك صحيحاً بالنسبة لهاردي). يوجد شيء ما من هذا الارتياح في الرسائل الأخيرة من حياة لورنس، وذلك بالابتعاد عن كل الجهود للتأثير في الآخرين، أو لفرض نفسه على العالم. لم يكن في حالة هزيمة، ولكن ربما شعر بنوع من الرضا عندما كتب في الأيام الخمسة قبل موته أنّ "هناك شيئاً مكسوراً في الأعمال... أعتقد أنّها إرادتي ".[٣٨]

أما فيما يتعلق بماسينيون، فيمكننا القول باختصار إن المشكلة ظهرت بتعابير أخرى مناقضة. إن ذلك الغريب، الذي أمسكه بيديه في يوم غضبه، سوف يكون من الآن فصاعداً قطب حياته، يبحث عنه ويحبّه، ليس عن طريق فعل من الإرادة الخالصة، ولكن عن طريق استسلام كامل: فبواسطة التطهر من الخطيئة، ومن ثم نبذ

متع الدنيا، يمكننا أن نأمل بالوصول إلى تلك الحقيقة التي كشفت عن نفسها، بدون مقابل، في لحظة رؤية. أمّا الطريق المستخدم للاقتراب من ذلك الهدف فهو الموضوع الرئيس للمراسلات بينه وبين الشاعر بول كلوديل Paul Claudel، والتي بدأت في أغسطس (آب) عام ١٩٠٨، تماماً بعد الأزمة في العراق. تدور الرسائل حول الاختيار الذي وجد ماسينيون نفسه مجبراً على أخذه: وهو أن يدير ظهره للعالم، ويصبح كاهناً، ويقبل دعوة تشارلز دو فوكو Charles de Foucauld لينضّم إليه في حياة من الصلاة والعزلة في الصحراء الكبرى، أو أن يتابع مهمة عالِم في العالم.[٣٩]

تدور المراسلة بين رجلين لهما طبعان مختلفان. فالعالَم، عند ماسينيون، هو صحراء تنيرها أشعة من الله؛ أما بالنسبة لكلوديل، فإنّ كلّ شيء متوازن ومتناسق له نظامه ومجاله الخاصّان، وتخرّبه الخطيئة مثل المبنى الذي ضربه البرق، ولكن تمّ ترميمه بواسطة العناية الإلهية. يجب على كل شخص أن يجد مكانه الملائم في النظام ويقبل حدود المكان، وفي النهاية يوجد فقط نوعان من النظام لنختار بينهما، إمّا الزواج أو الكهانة؛ والشخص الذي لم يختر أحدهما شخص ناقص، وسوف تتشتت قواه.[٤٠] كان كلوديل مبهوراً بشخصية ماسينيون بشكل واضح، والشيء الذي أخبره إياه هذا الأخير جعله يستحضر ذكرى تلك العلاقة الغرامية التي انعكست في كتابه "اجتماع الظهيرة". "تلك الأسرار التي منحتني إياها والتي تجد صدىً في قلبي" تذكره "بالعلاقة الفظيعة حيث فقدت للتو روحي وحياتي".[٤١]

لم تكن مجرد ذكرى فقط، بل شعوراً ما لمهمة مفقودة قادته لكي يحث ماسينيون على وظيفة الكهانة: "اعتبر حياتي حياة ضائعة"؛[٤٢] لقد منعني تذوق الفن من الحصول على تلك البساطة الكبيرة للنية التي بدونها لا يوجد صداقة حميمة مع الله"؛[٤٣] "عندما كتبنا بعض المقالات، ألّف مثلي بعض المسرحيات المليئة بالعواطف المصطنعة، أليس من النادر أن نطلب ما هو روحي؟"[٤٤] كان اعتناق ماسينيون لدين جديد إشارة إلى أنّ هناك شيئاً خاصاً مطلوباً منه: "لقد نجّاك الله بمعجزة من موت الجسد والروح...أنت تنتمي إليه وليس إلى نفسك."[٤٥]

كان هناك ذلك الشيء في طبيعة ماسينيون الذي وجّهه في نفس الاتجاه. كان مدركاً لتلك القوى بداخله، والتي كان من الممكن أن تقوده إلى "موت الجسم والروح"؛ وجاء اعتناقه لديانة جديدة في العراق، كما يخبرنا، في نهاية مرحلة من "المغامرات العنيفة، وذلك عندما كان متنكّراً على هيئة فلاح، بين الخارجين عن القانون".[٤٦] كان الجمال الدنيوي بالنسبة له نوعاً من الإغراء:

> يوجد نوعان من الجمال في هذا العالم، ومن الضروري أن نذمّر الأول أي بداخلنا لكي نحصل على الاحترام والتبجيل الذي يسمح وحده لأحدهما أن يصبح الثاني.[٤٧]

أعلن أنّه أصبح "مشلول الحركة جراء خوف داخلي في نفسه وبسبب عدم القدرة على محبة الآخرين بشكل خالص"[٤٨]

مهما كان الأمر فقد اتخذ قراره في النهاية بالاتجاه الآخر، وعندما أخبر ماسينيون كلوديل أنّه بصدد أن يتزوج ويعمل كعالِم في هذا العالم، نجد في جواب كلوديل نبرة أسف على الرغم من تلطفه بالتعبير عنها:

> لدي شعور بخيبة الأمل. لقد كنت آمل أن تتفوّق علي، ومن الصعب بالنسبة لي أن أراك في نفس موقعي... إنني أهنئك بزواجك من قلبي، وأسأل لك العون من الله. لم تعد رومانسياً ومشوّقاً يا ماسينيون، ولكن من الأفضل ألا تملك إحدى هاتين الصفتين.[٤٩]

لقد عبّر اختيار ماسينيون ربما عن قناعة، بالنسبة له على الأقل، على أن طريق العالَم كان شاقاً أكثر من نكران الذات، ولكنه نابع أيضاً من إحساس بأنه مدين بِدَيْن ما للعرب والمسلمين. فقد اعتنق ديناً جديداً في المشرق العربي، وكانت أول صلاة استطاع أن يصليّها باللغة العربية، وقدّمت له عائلة عربية في بغداد يد المساعدة وحسن المعاملة والضيافة في ساعة عسرة. ومهما كانت الدوافع، فإنه يجب المضي في الطريق بمجرد أن

يتم اختياره ؛ وفي السنوات التي كان فيها ماسينيون يكتب إلى كلوديل فقد كان أيضاً يجد طريقاً بحيث يمكن للحياة في هذا العالم أن تكرّس لخدمة الله، وذلك بالنسبة لوضعه فهي حياة عالِم يدرُس المخطوطات العربية.

كان العمل الذي واجه فيه هذه المشكلة هو رسالته للدكتوراه ـ التي انتهت فعلياً عام ١٩١٤ ، ولكنها لم تنشر حتى عام ١٩٢٢ ـ عن الحسين بن منصور الحلاّج، وهو معلّم صوفي أُعدم في بغداد عام ٩٢٢.[٥٠] إذ اتهم بالزندقة والترويج لفكرة أن التقليد المتعلق بطقوس الديانة الإسلامية هو أمر غير ضروري : إذ يتوجب هدم الكعبة بالإضافة إلى أنّ المسلم يستطيع أن يحجّ من غرفته الخاصة بدون الذهاب إلى مكة. ويتضمن هذا الأمر، على كل حال، وجود الشك بأنه كان يتحدث، في نهاية الطريقة الروحية، على أنّ الانفصال بين الإنسان والله يمكن أن يتم التغلب عليه عن طريق الحلول ؛ أي اتحاد الأرواح. كان ماسينيون يعتقد أنّ هذه الاتهامات باطلة، فالحلاّج لم يكن يتحدث عن اتحاد للمواد، بل عن المحبة الموجودة في قلبه بين الإنسان والله. كان مدركاً لنوع من الصلة المميزة مع الحلاّج، فبعض كلمات الحلاّج أعادت إليه شعوراً بالخطيئة، ومن ثم الرغبة في التطهّر؛ كما أنّ الحلاّج كان أحد الشفعاء وقد شعر بوجوده في لحظة الأزمة.[٥١]

تُعدُّ الرسالة، وهي بعنوان "عاطفة حسين بن منصور الحلاّج"، كتاباً من نوع مختلف عن كتاب "الأعمدة السبعة"، ومع ذلك فهناك تشابه ما في الهدف. إذ ينجح في كلٍّ منهما فنان أدبي ذو قدرة فائقة في الخيال، في الحصول على نوع من معرفة الذات عن طريق تصوير شيء آخر لا يشمله هو ؛ إذ يعتبر الكتابان في الحصيلة النهائية قصص سيرة روحية. تعتبر هذه المهمة خطرة، فالفنان يتعامل مع مادة ليست طيّعة تماماً، كما يمكن للحقائق الصعبة أن تقاوم جهود التخيل لكي تفرض وحدة للشكل عليهم. لقد أُلقيت العديد من الشكوك على مفهوم لورنس "للثورة العربية"، ولكنه يبقى كمصدر ذي قيمة لتاريخ المرحلة أكثر مما يُقرّه نقاد المرحلة الأكثر قساوة، وكتحفة ناقصة عن البوح بالذات. لا يوجد أدنى شك في عمق وأصالة دراسات ماسينيون، ومن التنوع

الاستثنائي لمعرفته وجودة بصيرته، ولكن عاجلاً أم آجلاً سوف يكون من الضروري أن يأتي عالم آخر لا يقع تحت جاذبيته لكي يطلّع مرة أخرى على المصادر المتعلقة بحياة الحلاج وتعاليمه. ومع ذلك، يبقى هذه الإنجاز أحد أهم الأعمال في الاستشراق الأوروبي، ومَعلماً خالداً في الأدب الفرنسي.

لو رغب ماسينيون بذلك لكان بإمكانه أنه يسمّيه "نصر" بدون إيحاءات السخرية التي نجدها في العنوان الفرعي عند لورنس. ينتهي كتاب "أعمدة الحكمة السبعة" بانفصال كامل للعلاقة بين الكاتب وموضوعه؛ "فالثورة العربية" تتجه بطريقها الخاص. إنّ هشاشة، أو حتى زيف، أساسها أمر واضح مسبقاً؛ فالبطل، الذي هو أيضاً المراقب، يطلب "الاستئذان بالرحيل بعيداً" ، إذ الحدث بالنسبة له محزن والعبارة ليس لها معنى.[٥٢] لكن، لا يوجد انفصال كهذا في عمل ماسينيون، بل على النقيض؛ فقد اكتشف وقدّم وجهة نظر للتاريخ بحيث تعد رابطاً بينه وبين موضوعه.

إنَّ التاريخ الحقيقي للعالم الإنساني، بالنسبة له، ليس ذلك المرتبط بالتجمعات الكبيرة، بل إنّما بالعمل المقدس في داخل كل ذرة فردية.[٥٣] والقائمون على هذا العمل هم أولئك الناس الذين يتحركون بالصلوات والتضحية تجاه الهدف النهائي في الحياة، ألا وهو الاتحاد مع الله بمحبة، والذين يأخذون على عاتقهم معاناة وعيوب الآخرين، والخطّائين، والجهلة، والفقراء، والمظلومين. كانت إمكانية التعويض، وهي قبول شخص لدَين يدين به الآخرون تجاه الله، هي شيء يزعم أنّه قد تعلّمه من الكاتب هايزمانز Huysmans، والذي تعرّف عليه في صباه، وهو الذي على فراش موته، قدّم معاناته من أجل اعتناق ماسينيون لدين جديد.[٥٤]

في هذا المجتمع المعزّز بالصلوات، هناك بعض من أولئك الذين، من خلال انخراطهم في الطريق الصعب للخطيئة والتوبة والتطهير، كانوا قد وصلوا إلى نقطة بحيث أصبح لصلواتهم في التعويض صلاحية مستمرة. إذ تستمر أعمالهم وكلماتهم تتردد من بعدهم؛ حيث تمتد خطوط حياتهم عن طريق بقائها في حياة الآخرين. إنّهم يشكّلون تلك السلسلة من الأرواح البطولية، أصدقاء الله. وهو الخيط الرئيس للتاريخ الإنساني.

كان الحلاّج يُعدُّ أحد هذه الأمثلة، وذلك بقبوله لانتقادات مجتمعه، ورغبته في الموت كشهيد، ولكن بالتدريج، وعبر القرون، كونه انجذب إلى الوعي الأخلاقي للعالم الإسلامي، ومؤدّياً عمله في نهاية المطاف في التعويض في حياة ماسينيون نفسه.(٥٥)

لا يوجد هناك مفكر أصيل أصالة كاملة، وفي هذا المفهوم المتعلق بسلسلة البدلاء فإنه من الممكن أن نرى آثاراً ليس فيما كتبه هايزمانز فقط، ولكن في أفكار شائعة في الكاثوليكية الفرنسية في ذلك الوقت، وفي "سرّية "كانت شائعة أيضاً، أي الاعتقاد بوجود حقيقة خفية خلف مظاهر الأشياء. إنّ مفهوم سلسلة شهود الحقيقة، والتسلسل الخفي للأولياء الذين يُبقون العالم على محوره، هو موضوع مهم في الكتابات الصوفية. كان ماسينيون يستخدم أفكاراً كهذه بطرق خطرة، ولكنها كانت تشكّل أساساً متيناً بشكل كاف ومتكيّفاً بشكل جيد مع احتياجات مزاجه لكي تؤمن إطار عمل يستطيع أن يعيش من خلاله، وذلك حتى موته في عام ١٩٦٢ عن عمر يناهز التاسعة والسبعين عاماً.

لا يستطيع أحد أن يتنبأ كيف كان من الممكن أن يكون عليه سن الشيخوخة عند لورنس. فمن الممكن، وذلك بطبيعته كفاعل أكثر منه كمتأمّل، أن يكون قد انجذب مرة أخرى إلى الحياة العامة لبلده، وذلك لو عاش إلى ما بعد عام ١٩٣٥ في السنوات القاسية التي تلت وفاته؛ وربما وجد نفسه مرة أخرى منشغلاً في اغراءات "الإرادة"، وربما يكون قد هزمها أخيراً. لكن الصورة التي بقيت هي الصورة الحزينة الأخيرة، التي التقطت له وهو يغادر القوات الجوية الملكية. إنّ شيخوخة ماسينيون، على كل حال، مليئة بذكريات زملاء وطلاب وأصدقاء لا يمكن حصرهم، وأولئك الذين رأوا ـ سواء مع الموافقة أو النفور ـ تأثيراته بالعامّة. وبرغبة شديدة في الانتماء إلى سلسلة الشهود والبدلاء، ولكن ليس بدون الحنين إلى الشهادة في الصحراء، مثل تلك عند تشارلز دو فوكو، فقد ارتبط معنى حياته بالصلاة والتشفع الأمر الذي مكّنه من إعادة شيء ما للمسلمين مما يعتقد أنه قد حصل عليه منهم. لقد عرف وحدانية وعظمة الله في عالم الإسلام؛ كما أن صلوات المسيحيين يمكن أن تعطيهم ما لم يستطع الإسلام أن يعطيهم إياه، وهو التجسد والصليب؛ وعلى الرغم من الاختلافات

والصراعات، فكلاهما ينتميان إلى ذرية إبراهيم. كانت الصلاة مع المسلمين ولأجلهم مهمته الخاصة في الكنائس المشرقية الناطقة بالعربية، إذ تمّ التعبير عن هذا الاعتقاد في مجتمع الصلاة الذي أسّسه، وكان أهم حدث في حياته فيما بعد هو ترسيمه كاهناً في الكنيسة الكاثوليكية اليونانية، الشيء الذي طالما رغب فيه، والذي تمّ أخيراً بموافقة البابا، الأمر الذي بقي سرّياً فعلاً طوال حياته.(٥٦)

تسارعت نشاطاته من هذه النقطة الرئيسة في كافة الاتجاهات، وذلك بزيارة السجناء، وتعليم المهاجرين الجزائريين، ومساعدة طلاب لا حصر لهم، إذ كان دائماً لطيفاً ومُعيناً لهم؛ وبممارسة احتجاج غير عنيف ضد التجاوزات في الحكم الاستعماري الفرنسي، وذلك تحت تأثير غاندي، وبالحج، قبل كل شيء، وذلك في حياته فيما بعد، إلى أماكن تتعلق بأهل الكهف في ايفيسوس Ephesus والمعروفين في كلٍّ من التقليد المسيحي والإسلامي، والذين اتخذهم رموزاً للمبعدين والمضطهدين، وأيضاً رموزاً للإيمان الخالص.

وصف كوف دو مورفيل Couve de Murville، عندما كان سفيراً في القاهرة، كيف أن "شخص الأستاذ ماسينيون الكئيب، واليقظ، والمتوتر" يمرّ عليه في المكتب من وقت لآخر، وبأية اتجاهات غير متوقعة يتجه بها حديثه. ويحمل معظم هؤلاء الذين قابلوه في آخر حياته ذكريات متشابهة، وهو أنه رجل لا يشبه أحداً على الإطلاق، قلق أحياناً، ولا يُنسى أبداً، إذ كان يتشح بالسواد دائماً، وكأنه في حالة حداد، هزيل الجسم ولكن مع مسحة جمال بسيط، وتنير وجهه الذي خطت فيه يد السنين عواطف متناقضة، وكأنّه ساحة معركة من الأرواح الخيّرة والشريرة؛ مؤدب بشكل كبير، مثل "فرنسا العجوز" إلى حد كبير، يجمع بين القوة والحلاوة، والغضب والرحمة، بطريقة حادة إلى درجة أن بعض هؤلاء الذين قابلوه لم يتحمّلوا وجوده، ولكن كان معظمهم متأثراً بإحساس مادي لما هو خارق للطبيعة؛ يتحدث دائماً، بتدفق ونادراً ما يأبه للزمان أو المكان أو لمن يحاوره، يشهد برؤيته لحياة إنسانية، ويعود، حتى في المناسبات الأكثر سوءاً، إلى اللحظة الرئيسة في حياته الخاصة، أي مشهد الخطيئة والندم والنور الإلهي في وجه الغريب.(٥٧)